الرحلة السورية الثانية

٦

ذكرنا في النبذة الخامسة التي نشرت في الجزء الخامس ان مسلمي بيروت قد تجدد لهم ثلاث حالات اجتماعية وتكلمنا على الاولى منهن وهي المتعلقة بالنساء فبقي ان نقول كلمة في كل من الحالتين الاخريين وفاء بالوعد

(اتفاق المسلمين والنصارى)

الحالة الثانية الميل الى الاتفاق مع النصارى وهذه ليست جديدة بالمعنى المتبادر من الكلمة وهو انها حدثت بالتطور الذي أحدثته الحرب الاخيرة وما تولد منها، بل كانت من تأثير تطور سابق عليها نبه العرب كغيرهم الى المحافظة على جنسيتهم وكان السوريون أسبق العرب الى التنبه والبحث في ذلك من حيث ان لهم وطنا خاصا له حدود ومصالح خاصة فلم تشاركهم فيها الاقطار العربية الاخرى وأهله مؤلفون من أصحاب ملل ومذاهب يرجع أكثرها الى فريقين محمديين ومسيحيين، بحيث يتوقف عمران البلاد وارتقاؤها على تعاون الفريقين وان كان أكثر مجموع أهالي — البلاد في غير لبنان — من الاولين كما أن أكثر رقبة الارض لهم

فالحق ان للشعور بالحاجة الى الاتفاق بين المسلمين والنصارى عدة محركات الحرب، وثلاثة قبلها وواحد بعدها، والاخير الذي سبق الى ذهننا عند كتابة النبذة الخامسة من الرحلة. أما المحرك الاول فهو الدستور الذي عاش الآمال بوطنية جديدة عثمانية تقضي على دسائس التفرق في المصالح الوطنية بين الملل والنحل، ولكن لم تلبث هذه الآمال ان خابت فكانت خيبتها بمحرك أقوى وهو اضطهاد الاتحاديين للعرب واجتهادهم في صرف قوى الدولة الى تقوية الجامعة التركية أو الطورانية وأكراه سائر الشعوب العثمانية على الاندغام فيها بمحو لغتهم وجميع مميزاتهم القومية والوطنية ولا سيما السوريين والعراقيين من العرب، وتلا هذا المحرك الثالث وهو حرب البلقان التي انكسرت فيها الدولة انكسارا حرك المطامع الاوربية المستعدة لوثوب على البلاد العربية لاستعمارها — وعلى اثر ذلك تألف حزب اللامركزية في مصر وتعاهد الاستانبولية والبيروتية من المسلمين والنصارى، وباتفاق الحزبين مع بعض شبان السوريين المستقلين

بتلقي العلم في أوربة تكون المؤتمر السوري وجعلت رياسة ادارته لحزب اللامركزية لانه أقوى الاحزاب وأظهرها وأعمها

واما الحرب فقد كانت ويلاتها ومصائبها محركا انسانيا وطنيا للتعاطف والتراحم كما وصفنا في هذه الرحلة ووصف غيرنا من الكتاب في الجرائد السورية في جميع الاقطار

واما المحرك الاخير وهو الاحتلال فقد كان يجب ان يكون — بعد تلك المحركات الممهدة او المؤسسة — هو المتمم للبناء ولكنه كان هادما للاساس والقواعد وراجعا بهؤلاء السوريين المسالمين الى شر مما كانوا عليه قبل تلك التطورات أو المحركات الدافعات لكل فريق الى السعي للاتفاق مع الآخر وتكوين جامعة وطنية، وقد كان كل فريق مؤاخذاً في هذا اللوم الذي كان مظهراً لفقد التربية الوطنية والقومية وتغليب التعصب الديني على كل ماسواه حتى كانه — او لانه — قد صار غريزة او ملكة راسخة لا تزول الا بجهاد طويل يتقرض فيه جيل ويتجدد جيل

ذلك بان الاحتلال المختلط الذي تلا جلاء الترك عن سورية كان مذبذباً فقد سبق الامير فيصل بجنوده ورجاله الى احتلال البلاد باسم الحكومة العربية ورفع على معاهد الحكومة في مدنها علمه العربي الحجازي وكان الاهالي قد سبقوا الى تأليف حكومة وطنية مؤقتة وتلاه الاحتلال المختلط الثلاث تحت قيادة الانكليز فالقسمة المثلثة فالقسمة الثنائية، ولما جاء رجال فيصل اولا خضعهم الجميع ورفعت الحكومة اللبنانية علمه على دار الحكومة في (بعبدا) وكانت المبشرات بالثورة العربية والحكومة العربية الجديدة التي ستنقذ البلاد من الترك (١) قد تغلغلت في البلاد بسعي الدولة البريطانية فكان مجيء رجال فيصل واستيلاؤهم على مصالح الحكومة منتظراً وعده الاهالي أمرا متفقا عليه بين الحلفاء — وهم ملك العرب — فتلقاه النصارى كالمسلمين بالرضاء والتسليم .

وههنا ظهر تقصير المسلمين وجهلهم بالسياسة وطبائع الاجتماع اذ شكلوا الحكومة السورية المؤقتة اولا والحكومة العربية ثانيا من انفسهم ولم يطلبوا كفاءة النصارى في الجاه والعلم الى التشاور والاشتراك في تأليفها، وقد بحثت في هذه المسألة في بيروت وغيرها فاعترف لي بعض من ذاكرت فيها من المسلمين بالتقصير وانه لم يكن سوء نية اذ لم يكن من تشاور بين المسلمين أنفسهم حتى يقال أنهم استأثروا بالاعمال وتعمدوا ان يكونوا وحدهم حكام البلاد، بل كانت

العمال في ذلك فردية فكل من يلتمس في وظيفة يلتمس لنفسه. وانما كان جل
سعي الى ذلك من افراد المسلمين لما سبق لهم من التقدم لخدمة الحكومة
التعلم في المدارس العثمانية الرسمية لاجل ذلك، وقلما كان النصارى يتقدمون
لذلك ويستعدون له او يدخلون مدارس الدولة التي هي الوسيلة اليه. ولو كان
للمسلمين حزب سياسي منظم لما فاته ان يغتنم هذه الفرصة لاتمام ماتأسس في
اثناء التطورات العربية من اسباب الاتفاق ودواعيه. ثم انه كان في البلاد
جمعية سياسية سرية لها علاقة وارتباط بالامير فيصل ولكن اكثر افرادها
من الشبان الذين لم ترتق بهم السياسة الى مثل هذا الفكر

ولم تكد تستقر الحكومة العربية الفيصلية بالاحتلال العربي حتى تبعها
احتلال المختلط من الانكليز والفرنسيس الذي قسم سورية الشمالية الى
منطقتين: غربية ساحلية احتلتها الجنود الفرنسية وجعلت لها السيطرة عليها
تحت رياسة القيادة الانكليزية العامة فيها، وشرقية داخلية احتلها الجند
العربي باسم حكومة الحجاز وان كان الجند نفسه مختلطا والمنظم منه مؤلفا من
السوريين والعراقيين وقد جعل له السيطرة في هذه المنطقة تحت رياسة القيادة
البريطانية أيضاً. وكان هذا التقسيم مقدمة لتنفيذ اتفاق سنة ١٩١٦
سايكس ١٩١١ وقد اعتمدت السلطة الفرنسية في ادارة المنطقة الغربية على صنائعها من
النصارى ولا سيما الموارنة منهم فانتشرت من الموظفين من هؤلاء فكانت كثرتهم
ساحقة لمثل عددهم من المسلمين لان اكثر اعمال الحكومة كانت بأيديهم من
عهد الترك ورأى النصارى ان الدولة قد دالت لهم فرحبوا بذلك وسروا به ولم
يكن للمسلمين يد عندهم في تلك الايام الفيصلية التي صار أمر الحكومة اليهم
فأعرضوا عن المسلمين بل صاروا يؤذونهم بالقول والفعل واعتزوا عليهم
واعتزوا كبيرا لم يفعل المسلمون شيئاً منه في دولتهم التي تعد بالايام لا بالشهور
والسنين، ونسوا كل ماكان قبل ذلك من حرص المسلمين على الاتفاق معهم
في الحرب العامة حتى رضوا ان يكونوا لهم اضعف الاعضاء في مصالح الحكومة
الحربية وغير المنتخبة وذلك فوق ما اقتضته الانسبة العادلة التي تجري
عليها جميع الدول الراقية وما كان من عملهم حينئذ واعمالهم معهم في زمن
الحرب. وقد اشتهر ماوضعوه من الاناشيد في ذم المسلمين واهانتهم وانشدت
في الشوارع والاسواق في بيروت في يوم عيد الفصح. ولولا ان اعتصم

المسلمون بالصبر والحلم لو قمت يومئذ مقالة فاضحة تعد سبة لسورية ما بقي الدهر.

على ان المسلمين لم يكونوا قد يئسوا من سعي فيصل الى استقلال جميع سورية وجعل حكومتها عربية بل كان رجاؤهم في ذلك عظيما وقد شهد لهم بعض كبراء الضباط الانكليز على المسيحيين ولا نحب ان نشرح ذلك ونطيل فيه لئلا يعد انتصارا منا لاهل ملتنا ونحن انما نكتب لاجل التأليف والاتفاق لا لتقوية الشقاق. وغرضنا ان نقول ان مسلمي بيروت شعروا في هذه الحالة بشدة حاجة البلاد في هذه المنطقة الى الاتفاق بينهم وبين النصارى على الوحدة الوطنية ولكن لم يجدوا منفذا للسعي . ويقابل ذلك في المنطقة الشرقية ـ حيث يقل المسيحيون ـ ان المسلمين كانوا والحكومة في ايديهم يجتهدون في استمالة النصارى واشراكهم في كل عمل ويودون اعطاءهم فوق ما يريدون بحسب النسبة العددية وقد جرت الاحزاب السياسية على ازالة الصبغة الاسلامية من الحكومة ارضاءا لهم وظهر اثر ذلك في المؤتمر السوري والقانون الذي وضعه للحكومة السورية العامة المتحدة فانا أذكر هذا وذاك لا لتسجيل الذنب الاكبر على النصارى وتصغير ذنب المسلمين أو تبرئتهم بل لاثبت به اخلاصهم في الميل الى الاتفاق

وقد كتبت وأنا في بيروت عدة مقالات في جريدة الحقيقة بامضاء (السيد) دعوت فيها الى الاتفاق بالحجج الناهضة والاساليب الجاذبة ، واجتناب كل ما ينفر من الغاية المقصودة فظهر لها تأثير في زيادة ميل المسلمين الى الاتفاق ولم يظهر لها في النصارى الا أثر ضعيف في بعض شبان المدرسة الامريكانية الجامعة وقيل لي ان آخرين من الاحرار المستقلين قد سروا بها ولكن لم يستجب الدعوة منهم احد ، ولو لا ان كانت تلك المقالات فائضة من روح الاخلاص والانصاف والتلطف في الدعوة لوجد فيها المتعصبون من القوم والذين يخدمون سياسة التفرقة مأخذ للرد عليها ولكنهم لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وقد نقل الينا ان الاستعداد للاتفاق يقوى بعمل الزمان عاما بعد عام . حقق الله الآمال

التربية الملية مع التعليم المصري

لقد نام المسلمون نومة اجتماعية أطول من نوم اهل الكهف وأثقل ، الموقظات التي تصخ الاسماع تتوالى من حولهم كالصواعق وقد ضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ، ولما بعثوا وجدوا ما يعرفون من سير البشر قد تبدل فصار على غير ما يمهدون ، رأوا الغربيين قد سادوا العالم وتولوا ادارة شؤونه في

بلادهم وبلاد غيرهم من حيث يشعر أولئك الاغيار ومن حيث لايشعرون ، حاروا في امرهم لايدرون ما يصنعون

ماذا يعملون؟ ولماذا لايدرون؟ وكيف يعذر بهذا الجهل المسلمون؟ القرآن صيح بهم من فوقهم، (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وشواهد هذه القاعدة الاجتماعية القطعية بين أيديهم وعن ايمانهم وشمائلهم

صفات الانفس التي يتوقف تغيير أحوال الامم بتغييرها هي ما يبعث على الاعمال ، من علوم وأخلاق ، وهما يكتسبان بالتعليم والتربية كما ورد في حديث « العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » فأما العلوم النظرية والفنون العملية ، أوالصناعات الآلية ، ترتقي بارتقاء العمران، وليس لها دين ولا وطن ، بل يتبع فيها سير العمران واختلاف الزمن ، وأما الاخلاق والملكات النفسية ، التي تتجدد بها حياة الامم الاجتماعية ، فهي تختلف باختلاف الامم في المقومات والمشخصات الملية والقومية ، وتراعى فيها الغرائز القومية والوراثة الجنسية، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة » هم كذلك في أفرادهم ، وفي جماعاتهم وأقوامهم ، فالقوم يمرض لهم القوة والضعف ، والعز والذل ، كما يمرض للمعدن الصقل والصدأ ، والتربية والتعليم للافراد والاقوام كالصقال للمعدن الذي يظهر رونقه الفطري ويزينه ويعظم الانتفاع به، ولا يقصد به تبديل جنسه ونوعه بتحويله الى نوع آخر ـ فلماذا لم يجار المسلمون الغربيين في أساليب التربية الملية والتعليم المدني ومدارسهم بين أيديهم في ديارهم ولا سيما بيروت منها ؟ فأعظم المدارس التي أسسها الافرنج فيها المدرسة الانجيلية الامريكانية والكلية اليسوعية ، فلماذا لم يقتدوا بهم بتأسيس مدرسة قرآنية أو مدرسة محمدية ؟ على ان سائر المدارس التي أسسها الافرنج وتلاميذهم من النصارى الوطنيين دينية التربية ومنسوبة الى البطاركة والقديسين من رجال دينهم ، وباليت التربية الدينية فيها كانت صحيحة خالصة من شوائب الاهواء السياسية . كلا ! ان كل شعب من شعوب الافرنج قد بث في مدارسه التي أنشأها في الشرق دعوة سياسية تنفخ فيها من روح الدين والمذهب فكان ذلك أكبر أسباب الشقاق الديني في سورية وقد كان هذا خفيا عن الدولة العثمانية الجاهلة المتساهلة وعن أكثر الناس ولكن صار معروفا للعوام كالخواص . اذ ظهر تأثيره بما تجدد من الشرق والشقاق ، بعد تلك المسائل التي مهدت للاتفاق . وهي ما أشرنا اليه في الفصل

الاول من هذه النبذة

على مسلمي بيروت من ضرر مدارس الافرنج في هذه الايام فمهما كانوا يبالغون في تهويله بها وقد علما زوال الحكم العثماني مع المبالغة على التشدد في اجبار من يتعلم فيها من أولاد المسلمين على [illegible] النصرانية وحضور وعظها وصلاتها ـ فاقترحت ذلك بالقاء عدة خطب دعوت فيها الى تأسيس مدرسة كلية إسلامية ، ثم رغبت الى عمر بك الداعوق الذي كان رئيس البلدية أن يدعو كبار الاغنياء الذين يرجى منهم [illegible] الا بعد دعوتهم الى الاكتتاب لهذا العمل قلبي بالارتياح ، ولما انتظم عقدهم ألقيت فيهم خطابا بما يقتضيه المقام من الكلم الذي يرجى ان يقع موقع الاقناع من العقول ، والتأثير من القلوب ، وفتح عقب الفراغ منه باب الاكتتاب فدخله الاكثرون وأرجأ الاقلون ، ولكن كان ما كتبوه من المبالغ غير لائق بهذا المشروع العظيم ولا باعث على الرجاء في النجاح فآلمني ذلك وحفزني الى القاء خطاب آخر كان شديدا بقدر شدة تألمي وتهيج شعوري حتى قال لي صديقي احمد مختار بيهم بعد أيام انه لا يوجد أحد قبل منه هذه اللهجة الشديدة سواك ولكن كان من تأثير الاخلاص فيه ان ضاعف كثير من المكتتبين ما كانوا كتبوه من التبرع

ثم ألفنا لجنة من كبار الوجهاء أهل الغيرة كانت تطوف على من لم يحضر ذلك الاجتماع في مكاتبهم ومخازن تجارتهم لاتمام الاكتتاب ، وافرادها عمر بك الداعوق وابو علي سليم علي سلام افندي واحمد مختار بك بيهم ومحمد افندي الناخوري ورشيد افندي اللاذقي ورشيد رضا كاتب هذا . وقد بلغ الاكتتاب بالمبالغ التعهدية بضعة آلاف من الجنيهات مع اكتتاب سنوي آخر وقد سافرت الى الشام قبل اتمام الاكتتاب فلم يقف سيره ولكن العمل لم يقف فقد باعوا ارضا واسعة بجوار الحرش باسم هذه المدرسة ستبنى فيها ان شاء الله تعالى

هذا ما انتهى اليه السعي بعد الاستمداد لهذا المشروع وهو ليس مما تبيض به الوجوه ، الا اذا نظر اليه من حيث انه بدء حياة اجتماعية جديدة يرجى ان تنمي وتزداد بالعمل وقد كنا معشر الساعين اليه غير مغرورين بنجاحنا ومبالغ استعدادنا ولذلك اتفقنا على انه لا يرجى نجاحه وثباته الا اذا عهد به الى جمعية كالجمعيات المقاصد الخيرية الاسلامية التي ستكون ان شاء الله تعالى من أغنى الجمعيات الوطنية فقررنا نوط العمل بالجمعية ، وسعينا الى تجديد نظامها وتنظيم جلساتها

التي كانت معطلة فتم ذلك في أقرب وقت بمساعدة رئيسها صاحب الفضيلة مفتي بيروت أدام الله النفع به

ولما شعر المسيحيون بهذا السعي استكبره على المسلمين المستكبرون، وكرهه لهم ومنهم الكارهون، وكتبوا في جرائدهم اننا نريد لوطننا السوري مدارس وطنية، لا مدارس دينية، فالدين هو الذي فرق كلمتنا، واغرى العداوة والبغضاء بيننا، فرددت عليهم في جريدة الحقيقة بأن المدارس الدينية التي فرقت وفعلت ما فعلت هي مدارس مسيحية لا اسلامية ولا وطنية فاذا رضيتم بتركها واستبدال مدارس وطنية بها فاننا نضع أيدينا في أيديكم وأموالنا مع أموالكم وأولادنا مع أولادكم، ولكننا نقول ان الدين لم يكن هو المفرق والمغري بالعداوة بأصوله وتعاليمه بل بسوء استعمال السياسة الاجنبية له وانتا بالتربية الوطنية يمكننا أن نجعله من أكبر أسباب الاتفاق والتعاون، وفي نصوص القرآن والانجيل، ما يهدي الى سلوك هذه السبيل، وهي التي سلكها فقيد الوطن البستاني الذي اتفق المسلمون مع المسيحيين على احترامه والاحتفال في هذا العام بذكرى مرور مئة سنة من تاريخه

فهلموا ننشئ مدرسة وطنية جامعة ونجعل في جانب منها مسجدا وفي جانب آخر كنيسة، فان التربية لا تكمل بغير فضيلة والفضيلة لا تكمل بغير دين، وفي كل من الدينين الاسلامي والمسيحي فضائل كافية، وهي في الاكثر متفقة أو متقاربة. فليرب كل فريق منا أولاده على عبادات دينه وفضائله، ومحبة وطنه والتعاون على ترقيته، على قاعدة المنار الذهبية (تتعاون على ما نشترك فيه، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه) فنحن مشتركون في أرض هذا الوطن وفي جميع مصالحه الاقتصادية والسياسية ومشتركون في اللغة فنتعاون على ترقية ذلك بجميع فروعه ولهذا نختلفين الا في الدين ومذاهبه فيحفظ كل منا الآخر فيه وليعلم الافراد المارقون من الدين من الفريقين انه ليس في استطاعتهم هدم الدين وهذه البلاد وما يجاورها هي مهبط ومنبت الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام - أولئك العظام الذين يقدس ذكرهم مئات الملايين في الشرق والغرب ولا يعدون احداً من الفلاسفة ولا من الملوك والفاتحين مساويا ولا مدانيا لاحد منهم بل ولا أصحابهم وتلاميذهم الاولين، ولا أوليائهم المخلصين. بهذا قامت الحجة لنا عليهم والخلاص في الدعوة الى المصلحة العامة لا تدحض له حجة لان الله تعالى هو المؤيد له (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين)